# نموذج لتسامح المسلمين مع الآخر

## المسلمون يدافعون عن اليهود ضد الاضطهاد الأوروبي

أ.د/ أحمـــد عامـــر(*)

تمهيد :

يعد التسامح وحب الآخر ركناً مهماً وأساسياً فى العقيدة الإسلامية فقد وصف الله عباده المسلمين فى القرآن الكريم بأنهم يحبوا مخالفيهم فى الدين فقال تعالى : ﴿هَاأَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ﴾ [آل عمران:١١٩]، فالقرآن ينطق بأفصح عبارة وأصرحها واصفاً المسلمين بهذا الوصف الذى هو من أثر الإسلام وهو أنهم يحبون أشد الناس عداوة لهم وهذا دليل على أن هذا الدين دين حب ورحمة وتساهل وتسامح ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نصارى﴾ [المائدة:٨٢]، إنهم لا يحبونكم مع أنكم تؤمنون بكتابهم ومع ذلك تحبونهم ولا يحبونكم وبهذا نحتج على من يزعم أن الإسلام يغرى المسلمين ببغض المخالف لهم فى الدين .. كما أمر الله المسلمين أن يجادلوا أهل الكتاب بالتى هى أحسن فقال عز من قائل: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٢٩].

إن علاقة المسلم بالآخر، هذه العلاقة يجب أن تكون علاقة تعاون وتساند – تأثير متبادل – وليس علاقة تعاند وتصادم.

---

(*) نائب رئيس جامعة قناة السويس ( سابقاً ).

إن معاداة السامية – منذ هرتزل، هى أفضل مساعي للصهيونية ولقد أعلن رئيس التنظيم اليهودي العالمي، فى ٢٣ يوليو عام ١٩٥٨م لدى افتتاح المؤتمر اليهودي العالمي بجنيف: "أن سقوط معاداة السامية المعلنة يمكن أن يشكل خطراً على البقاء اليهودي .. إن لليهود فى كل مكان تقريباً حقوقاً متساوية مع المواطنين الآخرين، سواء على المستوى الاقتصادي أو السياسي .. ومع ذلك فإن لاختفاء معاداة السامية بالمعنى الكلاسيكي للكلمة – على الرغم من كونه نافعاً للوضع السياسي والمادي للمجتمعات اليهودية – آثاراً سلبية على الحياة الداخلية لحركتنا".

لم يكن "ألفرد درايفوس" يعنى الكثير للعرب والمسلمين، حيث ثارت قضيته فى فرنسا، بين القرنين التاسع عشر والعشرين، دافع المسلمون عن الضابط اليهودي البريء المتهم بالتجسس للألمان .. فرشيد رضا الذى تتلمذ على يد محمد عبده فى مصر، تحدث سنة ١٨٩٨، سنة تأسيسه مجلته "المنار" عن أنباء شاعت فى فرنسا حول "ما قاساه اليهود فيها من الإهانة والاضطهاد وسوء المعاملة". ولم يكن فى وسع رضا، وهو رجل الدين أن يرد تلك البشاعات إلى الدين، إنما ردها إلى "التعصب الجنسى والحسد الذميم أثارهما فى صدر الأمة فئة من أرباب الجرائد المعادين لليهود الطامعين بما فى أيديهم من خزائن الأموال".

بيد أن تلميذ محمد عبده لم يكتف بهذا ، بل نراه يؤكد على تعصب أوروبا حيث "اضطهاد اليهود والهياج عليهم فى فرنسا المتمدنة بسبب مسألة درايفوس الذى اتضحت براءته" .. دافع رشيد رضا عن

درايفوس أقل بكثير مما اعتنى بالمقارنة بين عالم المسلمين وعالم المسيحيين. فلو أن "تلك الحوادث القبيحة جرى مثلها بين الشرقيين"، لطبق السماء صراخ تلك الجرائد وسلقت الشرقيين وآدابهم بألسنة حداد وأقلام أنفذ من السهام؛ بل لو كانت تلك الجرائد فى بلاد تكون فيها ضعيفة الجانب ضعف اليهود فى فرنسا، لكانت أسرع الناس طلباً للحرية المطلقة والعدالة العامة للبشر على اختلاف أجناسهم .. إن الحرية العمومية ليست مختصة بفريق دون فريق. فإن التمدن الصحيح والعدالة الحقيقية يفرضان المساواة المطلقة بين جميع بنى الإنسان فى المنافع العمومية .. فليس واضحاً تماماً أى الرغبتين كانت أقوى عند رضا و" منارة " الدفاع عن اليهود أم الطعن بالحضارة الغربية.

سمح لرشيد رضا بأن يدافع عن درايفوس من دون أن يبدو شاذاً أو متجرئاً على المألوفات، مال بعضا لصحافة الصادرة بالتركية والعربية معاً إلى الضابط المتهم زوراً فى فرنسا، فيما "انتهزت المناسبة لتسجيل بعض النقاط ضد الحضارة الليبرالية الزائفة فى أوروبا" .. ففى الأراضى العثمانية ، أوقفت السلطات توزيع بعض ما نُشر فى سنة ١٨٦٩، وكانت بين رقت وآخر تغلق صحفاً تحرّض على اليهود بوصف التحريض هذا تهديداً للأمن العام". فما يعرف بالعنصرية لم يجد فى النص الإسلامى، وحضارة الإسلام دائرة حول نص ما يغذيه. لقد خلا القرآن والصحيح الثابت من حديث الرسول مما يمكن أن يعد عنصرياً.

إن ما كتبه رشيد رضا ومسلمون آخرون سبقوه يستشف منه أن ثقافتهم غايرت أوروبا المسيحية فى النظر إلى الآخرين. فهى منذ عهد

عهيد، نظرت إلى اليهود والمسيحيين بوصفهم جزءاً منها، جزءاً قد لا يطابقها فى هذا الأمر أو ذاك، وقد يقسو عليه أهلها أو يرتابون به، وهم ميّالون إلى تبويبه بمقتضى هرمية .. غير أن أهم ما فى جمال الدين الأفغانى أنه دفع محاربة الاستبداد إلى مصاف متقدمة، ما يساعد من حيث المبدأ على الشروع فى تأسيس قيم منفتحة ومتسامحة تجمع بين المستبد بهم، بغض النظر عن أديانهم وأعراقهم .. والوجهة هذه التى ترافقت مع سياسات مدحت باشا، الإصلاحى الماسونى الذى أطاح بعبد العزيز فى سنة ١٨٧٦، كانت محكومة سلفاً بحدودها وطابعها المفارق، فـ "صدمة أوروبا" التى لولاها ما ارتفعت مسألة الاستبداد لتبلغ الرتبة التى بلغتها، كانت هى نفسها توأم التقدم الأوروبى، بالقوة، نحو الشرق.. مع هذا التقى فى بعض أفكاره مع النزعة التحررية لـ"تركيا الفتاة" التى خاصمها الشيوخ الذين خاصموه. فهو – ومن موقع دينى خاص به – ناهض ما يمكن اعتباره التنظيم الأصولى الأول الذى أنشأه عبد الحميد.

إن رشيد رضا حين دافع عن درايفوس، ما كان ماثلاً فى ذهنه تعاليم أستاذيه اللذين ارتبط باسمهما "الإصلاح الإسلامى" : جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده، فقد كانت كراهية الغرب حاضرة على الدوام فى "وعى هذا، إلا أن حب الغرب كان هناك أيضاً فورثه طه حسين ومحمد حسين هيكل ورفاقهما وطوروه على طريقتهم. والحق أن "الإصلاح" إنما تشكل من هذين الحب والكراهية معاً، فغدا يستحيل من دونهما النظر إلى الصلة الإسلامية بالآخر عند نهاية القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين.

فالأفغانى كان السيد الذى وجد من يتهمه بالجاسوسية، ومن يشك بإلحاده، والمسلم الذى عُرف بصلته الوثيقة بالمسرحى المصرى

اليهودى يعقوب صنّوع، كذلك كان الوجه الكوزموبوليتى المبكر الذى صارع حكاماً كثيرين وعاش فى أمكنة عدة .. حتى إن الخديوي توفيق حين نفى جمال الدين، نفاه بوصفه "رئيس جمعية سرية من الشبان ذوى الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا". وكان شاه إيران، ناصر الدين، نفاه فى سنة ١٨٩١م، فيما ظهر من يربط جمال الدين بمقتل الشاه بعد سنوات خمس.

من التكهنات والرغبات التى راحت تُلصق إلصاقاً بالتاريخ منذ اتساع الفجوة العربية – التركية، وبالأخص منذ سنة ١٩١٣. ولئن شارك فى تضخيم الوهم كون بعض الضباط الذين أطاحوا بعبد الحميد ماسوناً ، شكل وعاظ ورجال دين عرب، يبثون دعوته بلغة القرآن بين الرعايا والناطقين بالضاد.

وفيما لم يتلكأ خصومه الرجعيون فى استخدام شيعيته ضده فى البلاط العثمانى، اهتم جمال الدين بـــ"إزالة" السنى – الشيعى، ومن ثم الفارسى – الأفغانى والفارسى – التركى، عملاً بنظريته فى الوحدة والجامعة الإسلاميتين القابلة لتعدد التأويل، على أن رابطة الدين لم تتعارض، فى عرفه مع رابطة القومية فأذاع نداءً إلى مسلمى مصر والهند يقضى بحسن معاملة غيرهم من أبناء أممهم، وحين أنشأ "العروة الوثقى" وجهها إلى "الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً" ، وطلب المساواة فى المراعاة بين المسلمين وغير المسلمين شرط أن لا يصدر عن أحد من الأخيرين "ما يضر بشوكة الإسلام"، وفى هذا المعنى السياسى والحديث لم يتردد مستشرق متعاطف، كمكسيم رودنسون، فى المماثلة بينه وبين ثيدور هرتزل لحظة تصديه لإنشاء دولة يهودية، ففى

الفترة إياها كان أبو القومية الإسلامية، جمال الدين الأفغانى ، يصرف عمره مثل هرتزل، ليرى أى الدول يمكن أن تدعم مشاريعه، محاولاً أن يلعب الواحدة منها ضد الأخرى.

لم يعد المسلون المرايا الوحيدة لذواتهم وصورتهم فى هذا العالم، فالأفغانى بدأ مهجوساً بسلطة غير مستبدة هجاسه بأوروبا وما يعنيه لها الإسلام والحكم الذى يمكن أن تصدره عليه. وبسلبه وإيجابه كان لهذا التعويل على الآخر المتفوق، أن منح الأفغانية جدتها النسبية قياساً بالسائد .. فالإسلام إذ ينظر إليه سياسياً، وبالأحرى نضالياً وضدياً كحصن لـ "الهوية" فى مواجهة "الآخر"، يجعل وطأة التاريخ عبء تركته يصادران التقدم الذى وعد به الإسلام المذكور.

الإغفال عن بعض المعلومات المدرسية الذائعة، فأبسط إلمام بالولايات المتحدة وتاريخها الحديث يعلمنا أن اليهود تعرضوا لأكثر من مد معاد للسامية كان آخرها مطالع الخمسينات، والمد هذا إنما كانت مناسبته الكشف عن قيام الشيوعي اليهودي جوليوس بوزنبرغ وزوجته إيثيل، بتسليم بعض أسرار القنبلة الذرية إلى الاتحاد السوفيتي، هكذا أعدم الزوجان فى سنة ١٩٥١، عشية صعود المكارثية الظافر، وسط أجواء مهتاجة تستعيد الأوصاف "التآمرية" والشيوعية" لليهود.

ولم ينفصل هذا التطور، منا ناحيته، عن تحول عام فى المزاج الأميركي الذي بدأ يمنح العداوة لستالين، تحت وطأة الحرب الباردة، لا لهتلر الذي اندحر وانتحر، وإذا انطوى التحول هذا على محاولات لتهريب بعض النازيين واستخدامهم فى الحرب الباردة ضد الشيوعية،

فإن طغيان المشاعر الليبرالية واليسارية على البيئة اليهودية الأميركية لم يكن عنصراً مُريحاً.

وكانت المفارقات الدالة أن إعدام الزوجين روزنبرغ جرى فى مؤازراة حملة الصحافة السوفياتية على "الكوزموبوليتية" اليهودية، وقبل عام على محاكمة "العميل الصهيوني" والأمين العام للحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي، رودولف سلانسكي وإعدامه، وقبل عامين على "مؤامرة الأطباء" اليهود الستالينية الشهيرة.

فاليهود ، في سنة ١٩٣٤، يملكون وسائل الدعاية من صحافة وإذاعة وسينما فى الولايات المتحدة، و"لا يستطيع أن ينشر أكبر العلماء حقيقة تاريخية أو علمية إذا كانت مخالفة لمصالح اليهود"، وكذلك الحال فى إنجلترا وفرنسا حيث لهم السيطرة على الصحف والأحزاب، أما فى ألمانيا نفسها فقد عجز هوجوشتينز "الألماني الوطني" عن مقاومتهم بواسطة سبعين صحيفة كان يملكها فى برلين وغيرها، ولولا الهتلريون كانت لهم صحف ألمانيا كلها إلا الكاثوليكية، أبعد من هذا أن يهود أميركا ويهود الهند يسعون لتغيير شكل الحكم والإدارة فى الهند لأسباب اقتصادية تهمهم، مما يدل على أن للمركيز ردينغ (نائب المالك اليهودى) ضلعاً فى قضية الهند، أنه وعد مسلمي الهند بإعطائهم حقوقاً كثيرة فى دستور الهند الجديد إذا هم عدلوا عن مساعدة عرب فلسطين.. وهو يكتشف فى سنة ١٩٣٥، أن اليهود السوفيات "استولوا على مقاليد سياسة روسيا الخارجية"، لكن اليهود ، فى سنة ١٩٣٨، يعقدون مؤتمراتهم فى الصين وفى الولايات المتحدة لتدبير أمور الصين

ومقاومتها لليابانيين، وهم الذين يدبرون الأمور بين الصين وروسيا الشيوعية، علماً أن العام الذى تلا وشهد توقيع معاهدة التحالف الستالينى – الهتلرى، حول معاداة السامية فى الاتحاد السوفياتى إلى سياسة أمر واقع .. لكن الحرب العالمية الثانية، توضح استيلاء اليهود على زمام الأمور فى واشنطن وتحريضهم على الحرب .. وهو لا يلبث أن يستطرد فى سيناريو للخيال العلمى عن أدوار عدد من الوزراء اليهود فى البلدان الغربية لدفع بلدانهم والعالم نحو الحرب. فى أواخر سنة ١٩٤٧م بأن ملك رومانيا الشاب يريد أن يتزوج بامرأة بوربونية لا بمومس يهودية كما فعل أبوه، فإنه يستنكر – بعد عامين – دخول ثلاثة من الأغوار الدمشقيين كنيساً لليهود السوريين ورشقهم بقنابل أودت بـــ ١٤ قتيلاً وجرحت ٤٢٠؛ بل يستنكر اهتمام الناس بهذا العمل كما لو أنه وقع على قرية عربية فى فلسطين.

أما ألمانيا نفسها فقد عجز هوغاوشتينز "الألمانى الوطنى بواسطة سبعين صحيفة كان يملكها" رفضت دور النشر الفرنسية طبع كتاب جارودى "الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية" خوفاً من اللوبى الصهيونى .. قدم اللوبى الصهيونى جارودى للمحاكمة بسبب ما ذكره عن عدالة محكمة نومبرج، ودعوته للبحث العلمى فى الرقم المقدس للهولوكست: ٦ ملايين يهودى .. ومع ذلك فطبقاً لقانون فابيوس – جيسو، تمت محاكمة جارودى، وغرمه القاضى ٢٠,٠٠٠ فرنك، استأنف جارودى الحكم، واعتدى صهاينة بيتار على الصحفيين والإعلاميين العرب والإيرانيين على عتبة المحكمة، وطاردوهم حتى

محطة مترو الأنفاق وأصابوهم بما يستلزم علاجاً فى المستشفى .. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد تلقى جارودى عدة مكالمات هاتفية تهدده بالقتل، وتم الاعتداء على المكتبات التى تبيع كتبه فى فرنسا وسويسرا واليونان، حتى امتنعت عن ذلك .. أن هناك عشر دول أوروبية أصدرت قوانين شبيهة بالقانون الفرنسى، وأن هناك محاولات لتصعيد مثل هذا القانون للأمم المتحدة، الأمر الذى يعنى أن تشهر الأمم سيفها لحساب الصهاينة.